الفصل الرابع

مذاهب علم الأخلاق ونظريّاته

أشرنا فى الفصل الماضى الى أن الناس فى أحكامهم على الأشياء يراعون مقياسا خاصا ، فيحكمون على الشىء بأنه طويل أو قصير ويحتكمون فى ذلك الى "المتر" مثلا ، ويحكمون على الشىء بأنه خفيف أو ثقيل ويحتكمون فى ذلك الى "الأقة" أو "الرطل" أو نحوهما ، فما الذى نراعيه فى أحكامنا الأخلاقية ؟ إنا نقول الصدق خير والكذب شرّ فما هو المقياس الذى عرفت به ذلك ؟ واذا عرض موقف حَرِج وأردت أن أعرف أأصدق فيه أم أكذب ، وتجادل المتجادلون فيه بين محبّذ للصدق ومحبّذ للكذب فالى أىّ المقاييس نحتكم ؟ والناس يقولون : إن الصدق والعدل والشجاعة والعفة فضائل ، وأضدادها رذائل ، فما الشىء الذى فيها حتى جعلها فضائل أو رذائل ؟ و بأىّ مقياس قاس الناس حتى حكموا هذا الحكم ؟

هذا الموضوع هو الذى يسمى "المقياس الأخلاقى" ولم يتفق الباحثون فيه ولم يجيبوا عن الأسئلة الماضية جوابا واحدا، بل تعددت فيه المذاهب، ونحن نذكر أهمها :

(١) مذهب السعادة[١]

لما بحث العلماء فى مقياس الخير والشر بحثا علميا ذهب كثير منهم الى أن هذا المقياس هو "السعادة" وقالوا : إن السعادة هى الغاية الأخيرة للحياة، وهى التى تحرك جميع الناس للعمل، فاذا حللت عمل أىّ إنسان رأيت أنه إنما يطلب بعمله "السعادة" فالطالب يتعلم، ومحب المال يجمع، والرجل يتزوج، والعالم يؤلف، والكاتب يكتب، والقاضى يقضى، والصانع يصنع، وكل هؤلاء لو حللت أغراضهم من أعمالهم وجدت أن الغاية الأخيرة التى يرمون اليها هى تحصيل السعادة .

ولكن السعادة كلمة غامضة، وإنما يعنى بها أصحاب هذا المذهب "تحصيل اللذة وتجنب الألم" فهم يقولون : إن الانسان فى أعماله : من سعى لتحصيل الرزق، وتحصيل العلم، ومداواة مرض، وأكل وشرب، وتأليف، ونوم، ورياضة، إنما يطلب

(١) يسمى هذا المذهب بالانجليزية Hedonism

أحد شيئين : إما تحصيلَ لذة، أو تجنبَ ألم، ولا يمكن أن يخرج عمل يعمله عن هذين الغرضين .

واللذة هى مقياس العمل ، فالعمل يقوم بحسب كمية اللذة التى ينتجها ، فيقال : إن هذا العمل خير وذاك شر لأن الأول ينتج من اللذة أكثر من الألم، والثانى ينتج ألما أكثر من اللذة .

وليس مذهب السعادة يقول : ينبغى أن يطلب الانسان السعادة (اللذة) فحسب ، لأن ذلك من طبيعة الانسان ، وكل الناس إنما يبحثون وراء اللذة ، وكل عمل لا يخلو من لذة ، وإنما يقول : ينبغى أن يطلب أكبر سعادة ، أو بعبارة أخرى أكبر لذة ، فاذا خيّر بين جملة أعمال ينبغى أن يطلب أكبرها لذة ، والانسان المفرط فى شهواته لا يلام لأنه يطلب اللذة ، فكلنا يطلب ذلك ، ولكن يلام لأن إفراطه فى الشهوات يسبّب من الآلام أكبر مما يسبب من اللذائذ ، والذى كذب إنما يلام لأنه حصّل بكذبته لذة صغيرة وأنتج ألما كبيرا وهكذا .

وقال أصحاب هذا المذهب : إن اللذائذ يمكن أن تقارَن ، ويجب عند تفضيل لذة على لذة مراعاة الشدّة والمدّة ، وكذلك الألم ، لأنه يعتبر لذة سالبة ، فاذا سئلت عن عملين أيُّهما أفضل :

بناء مستشفى مثلا، أو التصدق على الفقراء بالمال ؟ فاحسب حساب ما ينتج عن كل من اللذائذ، ومدة هذه اللذائذ، فاذا كان الأول ينتج لذة بمقدار ٨٠ مثلا فى مدة عشر سنوات، والثانى ينتج ٢٠٠ فى مدة سنتين، كان العمل الأول هو الواجب، لأن لذته مع مراعاة مدتها أكثر وهكذا .

ولكن اذا قلنا إن السعادة هى الغاية الوحيدة للانسان ولا شىء غيرها، وأنها هى المقياس الذى نقيس به العمل لنعرف أخيرٌ هو أم شرٌّ، فسعادةَ مَنْ نريد ؟

هل ينبغى أن يطلب الانسان أكبر سعادة لشخصه هو، فالعمل خير اذا كان يسبب للعامل نفسه لذة أكبر من الألم، وشرّ اذا كان ينتج لنفسه ألما أكثر من اللذة ؟

أو ينبغى للانسان أن يطلب اللذة للعالَم الذى يعيش فيه، فالعمل خير اذا كان ينتج لذة للناس أكبر مما ينتج من الألم — ولو كان ينتج للعامل نفسه ألما أكبر — وشر اذا كان ينتج للناس ألما أكبر ؟ هذان مذهبان للقائلين بالسعادة :

(أ) مذهب السعادة الشخصية . (ب) مذهب السعادة العامة، ويسمى أيضا مذهب المنفعة .

(١) مذهب السعادة الشخصية[(١)]

هو المذهب القائل : إن الانسان ينبغى أن يطلب أكبر لذة لشخصه، ويجب أن يوجه أعماله للحصول عليها .

فعلى هذا المذهب اذا تردّد إنسان بين عملين، أو تردّد فى عمل أيعمله أم يتركه ، فليحسب ما فيه من اللذائذ والآلام لشخصه ويوازن بينهما، فما رجحت لذائذه فخير، وينبغى فعله ، وما رجحت آلامه فشرّ وينبغى تركه ، وما تساوت فيه اللذائذ والآلام كان فيه مخيّرا .

وقال أصحاب هذا المذهب : إن كل إنسان يجب أن يبحث وراء لذائذه هو وسعادته ، ويعمل ما يوصله الى ذلك ، والعمل الذى يوصل الى تلك الغاية أو يقرّبه منها يكون خيرا .

ومن أكبر زعماء هذا المذهب فى العصور القديمة "أبيقور"[(٢)] ويرى أن ليست تقاس الأعمال باللذات والآلام الوقتية فحسبُ ،

---

(١) يسمى هذا المذهب Egoistic Hedonism

(٢) أبيقور Epicurus فيلسوف يونانى (عاش من سنة ٣٤١ — ٢٧٠ قبل الميلاد) وقد أسس مدرسة فى أثينا سنة ٣٠٦ ق م يعلم فيها مذهبه ، واستمرت أكثر من ستة قرون .

بل الواجب أن يرمى الانسان بنظره على جميع حياته، ويحسب ما يستتبعه العمل من لذة وألم فى الحياة، فشرب الدواء المر يسبب ألما ولكن لأنه قد يُذهب ألما أكبر منه — وهو ألم المرض — يكون خيرا — والعاقل ينبغى أن يرفض لذة حالّة للحصول على لذة أكبر منها مؤجلة، ومن أجل هذا فضّل "أبيقور" اللذة العقلية على اللذة الجسمية، فان اللذائذ الجسمية سريعةَ الزوال لا تعدّ شيئا اذا قيست بتلك اللذة الباقية — لذة العقل وتحصيل العلم — التى بها تطمئن النفس، ومنها يتخذ الانسان عدّة لحوادث الدهر، وصروف الزمان .

وقال : إن خير اللذائذ هدوء البال وطمأنينة النفس، وأن سعادة الانسان تعتمد على حالته النفسية أكثر مما تعتمد على الظروف الخارجية، فليس المال الكثير والجاه الكبير ونحو ذلك يعين على السعادة أكثر مما تعين صفات الانسان الخلقية والعقلية، ومع ذلك فقد قال "أبيقور" : إن اللذائذ الجسمية الطاهرة ليست محرّمة، ولا مرذولة، ولا ضرر على العاقل من أخذ حظه منها من غير إفراط .

وعلى هذا المذهب إنما كانت الفضائل فضائل لأنها تسبب للعامل لذة كبرى، فالعفة مثلا فضيلة، والفجور رذيلة، لأنه

لو دقق فى حساب ما يجده العفيف من اللذة فى رضائه عن نفسه، وبعده عن الآلام التى ينتجها الفجور، واحترام الناس له، وثقتهم به، لوجد أنه يرجح ما يجده الفاجر من لذة وقتية، يتبعها ألم النفس، وفقد الثقة، وتعريض الصحة والمال والشرف للضياع، وهكذا القول فى الصدق والكذب، والأمانة والخيانة.

وقد غلط بعض الناس ففهموا أن مذهب "أبيقور" يدعو الى الانهماك فى اللذات الجسمية والجرى وراء الشهوات، حتى أطلقوا كلمة "أبيقورى" على الفاجر المنهمك فى شهواته، مع أن تعاليم أبيقور بعيدة عن ذلك، وقد نقد هو نفسه فى بعض كتبه بمن يفهم من قوله هذا الفهم السقيم.

[وفى العصور الحديثة قال بهذا المذهب "هُوبز" الفيلسوف الانجليزى (١٥٨٨ — ١٦٧٩ م) وبنى مذهبه الأخلاقى على أبحاث نفسية، فكان يرى أن الانسان مخلوق وفى طبيعته حبه نفسه، والعمل لإسعادها، وأن أساس أعماله الأثَرَة، (حب الذات) وليس يعمل عملا إلا من أجل نفسه، وليس حبه جاره أو صديقه إلا ضربا خفيا من ضروب حب النفس. نعم إنه قد يعمل الخير لغيره، ولكن الباعث الحقيقى له على عمله هو حبه نفسه، وطلبه اللذة لها أو دفع الألم عنها، وكل ما يسمى "إيثارا" أو نفعا للناس

ليس — بعد الفحص الدقيق — إلا نتيجة رغبة فى منفعة شخصية يراد تحصيلها عاجلا أو آجلا، ومن أجل هذا قال: يجب أن نساير طبيعة الانسان فلا نكلفه ما ليس من طبعه، بل نأمره أن يأتى من الأعمال ما فيه أكبر لذة له و يتجنب ما فيه أكبر ألم له].

وعيب هذا المذاهب (مذهب السعادة الشخصية) أنه يجعل صاحبه أثراً (أنانيا) لاينظر فى أعماله إلا لنفسه، مات الناس أوعاشوا، انتفعوا أو تضرّروا، اذا رغب فى وصول منفعة للناس فانما ذلك لأنها تجر المنفعة اليه، واذا تألم من شرّ نال أحدا فانما يكون لأن جزءا من الشرّ يناله هو، وفى الناس فى كل زمان قومٌ يسيرون فى حياتهم العملية على هذا المذهب وان لم يسمعوا به ولم يعرفوا شيئا عنه، تراهم فى كل طبقة من طبقات الناس، فى الأغنياء والصناع والعمال والموظفين والتجار، أولئك لا يلاحظون فى أعمالهم إلا أنفسهم، ينظرون الى غيرهم من الناس كما ينظرون الى متاع يستخدمونه لمصلحتهم، عندهم الانسانية والوطنية والتضحية ونحوها سخافات، إنما الفضيلة فى نظرهم أن يجثوا وراء لذتهم و ينشدوا مع الشاعر:

« إذا متُّ ظمآنا فلا نزلَ القَطْرُ »

وقد ردّ كثير من العلماء على «هوبز» فقالوا : إن فى الانسان عاطفة حب الناس بجانب عاطفة حبه النفس ، وإن نفوسنا

تهتز عطفا على الناس، ورحمة بالمنكوبين، وغضبا على المجرمين، ويحنّ الوالدان على أولادهم حنينا قد يصل الى حدّ أن يتمنوا أن يفْدوهم بأنفسهم، فليس من الصواب — إذن — أن يكون مقياس الأخلاق لذة العامل وحده، وإن تكليفنا له بمراعاة الناس والعمل لخيرهم لا ينافى طبيعته .

وقد جاءت الأديان من نصرانية وإسلام فأوجبت التضحية عندالحاجة،وحبّبت الى الناس الايثار والاحسان، فكان فى انتشار هذه التعاليم ما عاق هذا المذهب عن الانتشار، فإن الشرف والتضحية والايثار لا تتفق مع الأَثَرة وحب النفس .

وقد اعتُرض على مذهب السعادة الشخصية هذا بجملة اعتراضات :

(١) إذا كانت اللذة الشخصية هى المقياس فمن الصعب إن لم يكن من المستحيل — عدّ الاحسان فضيلة، مع إجماع الناس على عدّه كذلك .

(٢) هذا المذهب يستلزم احتقار من ضحوا بلذتهم وحياتهم لمنفعة الناس، وتكريم من ضحى بسعادة الناس وحياتهم لمصلحته هو — ولا قائل بهذا —

(ب) مذهب السعادة العامة[1] أو مذهب المنفعة

هذا المذهب يقول : إن ما ينبغي أن يطلبه الانسان فى الحياة ليس سعادته الشخصية ، وإنما ينبغي أن يطلب أكبر سعادة للناس، بل لكل حساس، ولتوضيح ذلك نقول :

عند ما نريد الحكم على عمل بأنه خير أو شر يجب أن ننظر فيما ينتجه العمل من اللذائذ والآلام لا للعامل نفسه — كما يقول المذهب الأول — بل لكل الناس، بل ولكلّ حيوان يتلذذ أو يتألم من هذا العمل، ثم نجمع ما ينتجه العمل من اللذائذ وما ينتجه من الآلام[2]، فإن رجحت لذاته آلامه فخير وإن رجحت آلامه لذاته فشرّ، فاذا سئلتَ — مثلا — هل يحسن أن تتعلم البنات مع البنين فى مدارس واحدة أولا، فاحسب حساب ما ينتجه ذلك من الفوائد والمضارّ للأمة جميعها، وقارن بينهما، فما رجح فاحكم بمقتضاه، وإذا سئلتَ هل من الحق أن تذبح الحيوان لتأكله فاحسب حساب ألم الحيوان من ذبحه، وتلذذ الآكلين من أكله ، وما يستفيده

---

(١) يسمى هذا المذهب (Universalistic Hedonism) أو (Utilitarianism)

(٢) مع ملاحظة أن الألم ليس إلا لذة سالبة .

الآكلون صحياً، وما تستفيده الأمة من صحة أبنائها وهكذا، وقارن بين اللذائذ والآلام، ثم احكم على العمل بأنه خير أو شرّ وهكذا .

وإذا خيرت بين جملة أعمال فاحسب حساب ما ينتج كل من اللذائذ والآلام، فأيها زاد رجحان لذائذه على آلامه فهو الخير، وهو الذى ينبغى أن يعمل .

وسعادة الجميع يجب أن تكون مطمح نظر كل إنسان ، لا سعادته هو وحده — والفضائل إنما عدّت فضائل لأنها تنتج للناس لذة أكثر من الآلام — فهى فضائل ولو آلمت بعض الأفراد، بل ولو آلمت العامل نفسه، وكذلك كانت الرذائل رذائل لأن آلامها للناس ترجح لذائذها، فهى رذائل ولو أفادت العامل نفسه .

فالصدق — مثلا — إنما كان فضيلة لأنه يزيد سعادة المجتمع وبه يرقى ويبقى ، ذلك لأننا محتاجون فى الحياة الى طبيب يرشدنا الى ما فيه حفظ الصحة، والى مهندسين نعتمد على أقوالهم فى بناء الجسور ونحوها ، والى كيمائى يبين لنا خواص الأجسام ، وإلى مدرّس يثقف عقول المتعلمين بما ينفعهم ، ولولا الصدق ما كان لنا أن نثق بأقوال هؤلاء ولا ننتفع بآرائهم ، فلما رأينا ما ينجم عنه

من السعادة للمجتمع حكمنا بأنه فضيلة ، وأوجبنا على الأفراد أن يصدُقوا ، وإن كان فى الصدق ألم لبعض الناس .

ورشوة القاضى — مثلا — إنما كانت رذيلة لأن القاضى إذا ارتشى أطلق سراح المجرم ، وهذا يشجعه هو وأمثاله على ارتكاب الجرائم ، لاعتقاده أنه يستطيع الفرار من العقوبة بالرشوة ، وبذلك تكثر المظالم ، ويضيع كثير من الحقوق . وفى هذا آلام كثيرة للمجتمع ، فحُرِّمت وإن انتفع بها القاضى المرتشى .

وهكذا الشأن فى جميع الأعمال ، فإن أردت الحكم على عمل بأنه خير أو شر فابحث عما يجلبه من اللذائذ والآلام للمجتمع ، مع بعد النظر ، ودقة البحث ، وتجردك من الهوى ومن تحيزك لنفسك ، ثم وازن بين لذائذه وآلامه .

ووزن الأعمال بهذا الميزان بطىء ، لأنه يتطلب حسابا دقيقا ، ونظرا بعيدا ، إلا أن النتيجة موثوق بصحتها — على أن مما يُسهّل عملية الوزن والمقياس أن أصول الفضائل والرذائل قد وزنت بهذا الميزان وحكم عليها بالخير أو الشر مثل الكرم فضيلة ، والبخل رذيلة ، والصدق خير ، والكذب شر ، فإن أردنا أن نحكم على جزئية من جزئياتها فلنرجع الى أصل من تلك الأصول التى حكم

عليها، كأن يكون العمل من قبيل الصدق أو الكذب، ولا حاجة حينئذ الى هذا المقياس، وإنما نحتاج اليه فيما لا يرجع الى تلك الأصول، كالعادات التي اختلف الناس في استحسانها واستقباحها، وكالمسائل التي لا ترجع الى هذه الأصول، فإن أداك بحثك الدقيق الى أن آلام العمل أكثر من لذائذه فاحكم بشرّه وإن حكم الناس عليه بالخير، وإن رأيت من الأعمال ما لا ضرر فيه أو ما آلامه أقل من لذائذه فاحكم بأنه خير وإن عدّه الناس جريمة، ويسمى هذا المذهب «مذهب المنفعة» ومن أكبر دعاته الفيلسوف الانجليزي بنتام [1] (١٧٤٨ — ١٨٣٢ م) وجُونْ سْتُوَارْتْ مِيل [2] (١٨٠٦ — ١٨٧٣ م).

واللذة التي يريدها أصحاب مذهب المنفعة تشمل اللذات الحسية والمعنوية، الجسمية والعقلية، بل قد صرّحوا بأن اللذات

---

(١) بنتام Bentham عالم انجليزي اشتهر ببحثه في الأخلاق والقانون، وهو من أكبر دعاة مذهب المنفعة وربما عد مؤسسه، وهو القائل بأن «مقياس الخير والشر أكبر لذة لأكبر عدد» وقد ألف في أصول القوانين كتابه الشهير (أصول القوانين) وطبقه على مذهب المنفعة وترجمه المرحوم أحمد فتحي باشا زغلول.

(٢) ميل Mill فيلسوف انجليزي كتب في المنطق والاقتصاد السياسي والسياسة وكتب رسالة في الحرية عربها طه افندي السباعي ورسالة في مذهب المنفعة ألفها سنة ١٨٦٣ وهو يعدّ من أكبر مؤسسي هذا المذهب.

النفسية أفضل من اللذات الجسمية — وكلما رقى الانسان طمح الى أشرف اللذات وأرقاها، فكما أن سعادة الانسان تختلف عن سعادة الحيوان كذلك تختلف سعادة العاقل عن سعادة الجاهل، واللذائذ الوضيعة سهلة المنال ولذلك كان حصول الجاهل على لذاته أيسر:

واذا كانت النفوس كبارا تَعِبَتْ فى مُرادها الأجسامُ

قالوا: والواجب ألا يبحث الانسان عن أكبر لذة بل عن أشرف لذة، وعن خير أنواعها، ولا يتيسر ذلك له إلا بأن يوسع فكره، وأن يكون عنده من حب الخير للناس ما عنده لنفسه.

هذه هى خلاصة هذا المذهب، وقد وجهت اليه اعتراضات كثيرة أهمها:

(١) أنا لو اتبعنا هذا المذهب وجب ألا نحكم على عمل بأنه خير أو شرّ إلا بعد أن نحسب كل ما ينشأ عن العمل من لذة وألم لكل إنسان، ولكل كائن حساس، وبعبارة أخرى نحسب حساب ما يناله الأقارب والأباعد من اللذائذ والآلام، وما الأحياء وأعقابهم وهكذا، واذا كان كذلك فمن الصعب الوقوف على نتائج العمل وحسابها، فقد نرى عملا ينفع أمتنا ويضر الأجانب،

وقد ينفع معاصرينا ويضرّ الأجيال المستقبلة، والأجيال المستقبلة كثيرة العدد، من أجل هذا ونحوه يصعب الحساب ويدق البحث حتى لا نستطيع أن نحكم على بعض الاعمال بأنها خير أو شر، فمثلا هل تنتفع الأمة الآن بما عندها من مناجم اذا كان ذلك يضرّ أبناءها ؟ وهل تستدين الحكومة اذا خيف أن يكون الدَّين حملا ثقيلا على الخلف ؟ كل ذلك من الصعب تصفية حسابه على هذا المذهب .

(٢) إن هذا المذهب يدور حول اللذة والألم ويتخذ لذائذ الناس وآلامهم مقياسا، ولكنا نرى أن اللذة والألم تختلف باختلاف الأشخاص، فقد يرى أحد فى عمل لذة كبيرة ويرى فيه آخر لذة أكبر أو أقل، فيترتب على ذلك اختلاف الناس فى الحكم بالخير أو الشرّ، كما يترتب عليه ارتباك فى حساب مقدار اللذة والألم، فمثلا قد يسمع جمع من الناس أصواتا موسيقية فيطرب منها بعضهم طربا كبيرا بينما نجد بجانبهم من لم يأبَهْ لها ولم ينفعل بها أىّ انفعال، فكيف بعد ذلك نستطيع تقدير اللذائذ والآلام ونتخذها مقياسا تقاس به الأعمال .

(٣) إن هذا المذهب يجعل الناس باردين لا ينظرون فى الأعمال الى جمالها وشرفها، والباعث الشريف الذى بعث عليها،

بل لا ينظرون إلا إلى لذاتها وآلامها ، فضلا عن أن القول بأن الحياة لا غاية لها إلا اللذة والألم يحط من شرف الانسان ، ولا يليق إلا بالعجلوات .

وقد أجاب أنصار هذا المذهب عن هذه الاعتراضات ، وطال بين الباحثين فيها الجدال ، مما لا يتسع له هذا المقام .

ومع هذا فإنا نستطيع أن نذكر هنا أن هذا المذهب من أكثر المذاهب انتشارا فى العصور الحديثة ، وهو أرقى من مذهب السعادة الشخصية ، وكان له فضل كبير فى إيقاظ العقول ، ومطالبتها أن تكون غير متحيزة فى أحكامها ، فقد طلب من الشخص أن ينظر إلى لذائذ الناس كما ينظر الى لذاته هو ، وطالب المتشرّعين ألا ينظروا عند تشريعهم إلى طبقة خاصة وأفراد معينة ، بل ينظروا إلى خير الناس كافة ، فما يعدّ جرائم يعاقب عليها القانون وما لا يعدّ انما يلاحظ فيه لذائذ المجموع وآلامه ، والعقوبات التى توضع بإزاء الجريمة يجب أن يلاحظ فيها أنها تأتى بلذائذ للناس أكبر مما تسبب من الآلام وهكذا .

(٢) مذهب اللَّقَانَة (١)

(البصـــيرة)

رأى قوم أن مذاهب السعادة أو مذاهب اللذة غير صحيحة، وأن اللذة وإن كانت أحيانا دليل الخير فإنها فى كثير من الأحيان باعث على الشرّ، فـلا يصح — بعـدُ — أن تكون غاية نطلبها ونقيس الأعمال بها، وإنه لمن الضعة أن تُسيِّرَ الانسانَ فى الحيـاة اللذةُ فقط وألا يَسِـيرَ فى أعماله إلا طلبا للذة أو تجنبا لألم، وألا يبعثه على فعـل الخير الا توقعه ما فيـه من لذة، وألا يُجَنِّبَه الشرّ إلا حسبانه ما فيه من ألم .

وقالوا : إن الحق أننا نعرف الخير والشرّ من غير أن نقيسـه باللذة والألم، وأننا نحكم على الصدق والعدل والشجاعة بأنها خير وعلى أضدادها بأنهـا شرّ لا بالنظـر الى نتائجها وما يتبعها من نفع وضر، ولكن لصفات ذاتية فيها، فالصدق خير فى ذاته، والكذب شرّ فى ذاته، من غير أن نحسب حساب ما ينتج عنهما .

(١) وضعتُ كلمـة اللقانة ترجمة لكلمة (intuision) وأصـل معنى الكلمة الانجليزية النظر الى الشىء، ثم أطلقوها فى علم الأخلاق على الحاسة التى يدرك بها الخير والشر، وكلمة اللقانة من لَقِنَ الشىء اذا فهمه فى سرعة، يقال فتى لَقِنٌ أى سريع الفهم فاستعملناها فى هذا المعنى .

وأن فى كل انسان قوة غريزية باطنة، بها يميز بين الخير والشر بمجرد النظر، مُنِحْناها كما منحنا العين لنبصر بها والأذن لنسمع بها، فكما نستطيع إذا نظرنا إلى شيء أن نقول : إنه أبيض أو أسـود (من غير تعليل) وأنه طويل أو قصير، وإذا سمعنا صوت موسيقى أن نقول : إنه جميل أو قبيح ، كذلك نستطيع إذا رأينا عملا من الأعمال أن نقول : إنه خير أو شر .

وقـد تختلف هـذه القوة اختلافا قليـلا باختلاف العصور والبيئات ، ولكنها متأصلة فى نفس كل إنسان ، فهو إذا نظر الى شيء حصل عنده نوع من الإلهام يعرّفه قيمته فيحكم عليـه بأنه خير أو شرّ — ومن أجل هذا اتفق أكثر الناس على عدّ الصـدق والكرم والشجاعة والعـدل فضائل ، كما اتفقوا على عدّ أضـدادها رذائل، ألا ترى الى الأطفال يحكمون على الكذب بأنه شر من غير إعمال فكر، ويحتقرون السارق، ويعدّون السرقة جريمة ولو لم يكن لهم من النظر البعيد ما يرون به الآلام التى تحيق بالمجتمع من وراء الكذب أو السرقة، وكذلك القبائل التى لم تأخذ بحظ من المدنية، وليس عنـدهم نظر دقيق يقيسون به ما ينتج من اللذائذ والآلام يكادون يتفقون على الفضائل والرذائل .

هذه القوة التى فى طبائعنا نسميها «اللقانة» ونسمى المذهب القائل بها «مذهب اللقانة» .

وقد تصاب هذه القوة بالمرض فترى الخير شرّا والشرّ خيرا ، كما تصاب العين فلا تدرك بعض الألوان ، أو تحكم على الواحد بأنه اثنان ، وكما تصاب القوة العقليـة فتحكم أحكاما خطأ ولكن العين السليمة والعقل السليم يصححان هذا الخطأ كذلك اللقانة قد تخطئ ولكن اللقانة السليمة تدرك هذا الخطأ وتصححه .

ويمتاز هذا المذهب عن مذهب السعادة بنوعيه بأنه :

(١) يرى الفضائل فضائل فى جميـع الظروف ، وفى كل زمان ومكان ، وليس كونهـا فضيلة تابعا لغاية إذا وصلت إليهـا كان خيرا وإن لم توصل كانت شرّا .

(٢) إن الفضائل أمور بديهية ليست فى حاجة الى البرهنة على صحتها .

(٣) وأنها ليست محلا للشـك ، فمن المحال أن نرى يوما ما أن ضدّها هو الخير وأنها هى الشرّ .

وهـذه القوة فى طبيعـة كل الأنواع البشرية ، العـالى منها والسافل ، ولسنا نعنى أنها على درجة واحدة من الرقّ ، وإنما نعنى

أنها طبيعية فى الناس جميعا كحاسة السمع والنظر، وإن اختلفت قوة وضعفا، وأنها ككل مَلَكات الانسان قابلة للترقية بالتربية .

وعلى الجملة فهذا المذهب يرى أن الانسان يجب أن يكون أرقى من أن تُسَيِّره اللذة والألم، وليس قانون الأخلاق وأوامره خاضعة لنتائج العمل، ولا لما فيه من اللذائذ والآلام، وإنما رُكّب فى أنفسنا ضمير يناجى الانسان ويأمره بالخير وبالواجب، ثم إن هذا الخير أو الواجب قد يُثمر لذة وسعادة، وقد تسيّر الانسان الى حدّ ما رغبته فى اللذة وفراره من الألم، ولكن هذا الضمير لا يخضع لذلك، بل قد يتطلب أحيانا أن يضحى باللذة والسعادة والحياة نفسها للواجب، والواجب واجب ولو منع لذة واستتبع ألما، والخير خير فى ذاته مهما كلف من المشاق، وإنه لحطّ من كرامة الانسان أن يمسك دائما ميزانا يزن به كل عمل قبل أن يُعمل ليرى ما ينتجه من لذائذ وآلام، فان هذا عمل التجّار . أما الأخلاقىّ فيجب أن يكون أشرف من ذلك، يصغى لصوت ضميره، ويسمع لما يوحى إليه من أوامر ونواه، وهذا هو مايشرّفه ويضعه فى أسمى مكان يليق به .

وممن ذهب هذا المذهب طائفة من الفلاسفة الأقدمين يسمون (الرُّوَاقِيّين) وهم أتباع زِينُون . فيلسوف يونانى (٣٤٢—

٢٧٠ ق . م) كان يعلّم أصحابه فى رواق مزخرف فى أثينا ، ومن ثم سمى أصحابه بالرواقيين (Stoics) وقد كان زينون معاصرا لأبيقور ومعارضا له فى تعاليمه . فبينما يرى أبيقور أن الغـاية من الحياة هى الوصول الى أكبر لذة ممكنة للعامل، وأنه يجب إحياء الشهوة وإرواؤها، كان زينون يرى أنه يجب ضبط النفس وقمع الشهوات وعمل الواجب للواجب .

كان هؤلاء الرواقيون يرون أن اللذة ليست هى الغاية للانسان، ولا هى بالخير دائما، وإنمـا الغاية نيل الفضيلة لأنها فضـيلة . وطلبوا من الناس أن يكفوا عن اتباع الشهوات وأن يمرّنوا أنفسهم على تحمل الآلام فى سبيل الفضيلة .

والرواقىّ لا يجعل أكبر همه أن يكون غنيا ولا متلذذا، إنمـا أكبر همه أن يعيش حكيما فاضـلا ، فى أىّ حال كان، فى فقـر أو غنى، وأن يستعمل ما حوله من الأشياء خير استعمال ، ومثّلوا الناس فى الدنيـا بالممثلين على مراسح التمثيل، قالوا : إن منهم من يمثل المَلِك، ومنهم من يمثل السائل الفقير، ولسنا نُثنى على الأول لأنه مَثّل دور الملك ولسنا نعيب الثانى لأنه مَثّل دور الفقير، إنما نثنى على من أجاد دوره ملكا أو فقـيرا ونعيب من لم يُجِدْ ملِكا أو فقـيرا — كذلك الشأن فى الحيـاة، فالانسان يجب أن يمدح

أو يذم لإجادته فى عمله أو عدمها، لا لمنصبه الذى يشغله وماله الذى يملكه .

وضرب أحد رؤساء هذا المذهب وهو "إِبِيكْتِيتس" (٥٠ — ١١٥ ؟ ب م) مثلا لذلك من لاعبي الكرة، قال : إنهم لا يلعبون للكرة نفسها ولا يهمّهم مِلْكها ولا من ملكها ، وإنما يمدح اللاعب لأنه يعرف كيف يلعبها وكيف يجيد رميها — يريد بذلك أن الأشياء الخارجية لا قيمة لها فى أنفسها ، وإنما يمدح الانسان على حسن استعمالها لا على ملكها .

والغربيون الآن يطلقون «رواقى» على من اعتاد أن يقابل الأشياء بهدوء وطمأنينة على الرغم مما يحيط بها من خطر وآلام .

[ومن القائلين باللقانة فى العصور الحديثة «كَانْتْ»(١) فقد كان يرى « أن عقل الانسان هو أساس الأخلاق . وليس الانسان

(١) « كانت » فيلسوف ألمانى عاش من سنة (١٧٢٤ — ١٨٠٤ م) وكان يعيش عيشة دقيقة منظمة ، فكان قيامه من نومه وشربه لقهوته وكتابته ومحاضرته وأكله ومشيه كل ذلك فى أوقات محدّدة ، وكان جيرانه يعلمون أن الساعة يجب أن تكون الرابعة والنصف بالضبط حينما يرونه خارجا من منزله فى معطفه الرمادى و بيده عصاه يتمشى بين أشجار الزيزفون فى الشارع الذى سمى بعده « ممشى الفيلسوف » وكان يمشى هذا الشارع ثمانى مرات روحة وجيئة كل يوم فى كل فصول السنة ، وإذا ساء الجو وأنذر السحاب بالمطر ترى خادمه العجوز يتبعه متأبطا مظلة كبيرة .

فى حاجة الى أن يتعلم أن العمل خير أو شر بواسطة الملاحظة أو التجربة، أو قياس ما ينتج عنه من لذائذ وآلام، ولكن العقل بطبيعته يرينا الخير والشر، فاذا عرض أمامنا عمل ما فعقلنا يرشدنا إن كان خيرا أو شرا من غير عمليات حسابية، والعقل يأمرنا دائما أن نعمل ما نحب أن الناس يعملونه، فيأمرنا بالصدق لأننا نحب أن الناس يصدقون، و بتجنب الكذب لأننا نحب أن الناس لا يكذبون . ويجب أن نخضع لصوت العقل وأن نجعل إرادتنا تنفذ ما يأمر به وما ينهى عنه، واذا جرينا على هذا المبدأ دائما ولو خالف ميولنا وشهواتنا فقد أدينا ما علينا من الواجب وسرنا سيرا أخلاقيا »]

وقد اعترض على هذا المذهب (اللقانة)، القائل بوجود غريزة فى الانسان يميز بها الخير من الشر، كالحاسة التى يميز بها بين الألوان والأصوات :

(١) بأن الناس يختلفون فى الحكم على الأشياء اختلافا كبيرا حتى فى البديهيات، ففى "سبارطة" كانت تعد السرقة عملا ممدوحا، و يعد القتل فى "داهومى" واجبا من الواجبات فكيف يقال بعد: إن الناس منحوا غريزة لادراك الخير والشر ؟ مع أنا نراهم لا يختلفون هذا الاختلاف فيما يدرك بالحواس ، فلا يقول قوم

على الأسود أبيض، ولا يقول آخرون : إن الاثنين أكبر من الأربعـــة .

(٢) وبأنا نشاهد أنا فى كثير من الأعمال نتوقف عند الحكم عليها بأنها خير أو شر، ونحس أننا نحتاج فيها الى إمعان النظر واستعمال الروية ، ولو كان الحكم يرجع الى حاسة فينا ما احتجنا الى ذلك، كما لا نحتاج الى إمعان النظر فى إدراك الأسود والأبيض والجميل والقبيح .

نظرة عامة الى هذه المذاهب

رأينا أن العلماء مختلفون فيما بينهم فى معرفة المقياس الأخلاقى، وأن كل مذهب من المذاهب لم يسلم من اعتراضات تَردُ عليـه ، ولم يخلُ كذلك من وجهة نظر صحيحة .

واذا ألقينا عليها الآن نظرة عامة رأينـا أن من الخطأ الواضح الجرى على مذهب السعادة الشخصية، لأن الانسان لا يعيش وحده فى هذا العالم، وهو مضطر فى معيشته الى التعاون مع أبناء جنسه، فليس من الحق إذن أن يبحث فقط وراء سعادته هو — فضـلا عن أنا اذا رجعنا الى الطبيعة الانسانية رأيناها تدعو الى عمل الخير للناس كما تدعو لعمل الخير لنفسه، فكثير مما يعمله الآباء والأمهات

لأولادهم لا يعملونها لأنفسهم ، بل هم قد يبــذلون أنفسهم لخير أولادهم ، وكأعمــال الخيّرين الذين يقصدون الى إيصال الخير الى الناس مهما نالهم من الأذى — بل نحن فى أعمالنا اليوميــة نشعر بميــل الى إغاثة الملهوف ، و إنقاذ المشرف على الخطر ، ومساعدة المنكوبين ونحو ذلك ولو لم يعد علينا من ذلك منفعة خاصة ، مما يدل على تأصل عاطفة الخير فينا ، وحب الناس ، وأن ليس شخصنا هو المحور الوحيد الذى تدور عليه الأخلاق .

وقد جاءت الأديان المختلفة لمحاربة "الأَثَرَة" والتفــانى فى حب النفس ، وحببت الى النــاس "الايثار" والعمــل لخير الناس ، ووضعت المبادئ العامة لذلك نحو : « عامل الناس بمــا تحب أن يعاملوك به » و « أَحِبَّ لأخيــك ما تحب لنفســك » ومدح الله قوما بقوله تعالى : ﴿وَيُؤْثِرُونَ على أَنْفُسِهِمْ ولو كَانَ بِهِم خَصَاصَةٌ﴾ — نعم إن الطبيعــة ركّبت فينا حب ذاتنــا ولكنها ركبت فينا أيضا حب غيرنا ، وجعلت فى استطاعتنا ألا نغلو فى ذلك ، وأن نحب الخير لنفسنا وللنــاس ، ومن شاء أن يكون عظيما فليحب الخير أكثر ممــا يحب نفسه و يتبعه حيث كان .

ويقول "سبنسر" : إن الواجب ألا نبالغ فى الأثرة ولا فى الايثار ، لأنا اذا بالغنا فى أيهما أضعنا المقصود منــه ، فلو أن كل إنســان

يبحث عن لذة نفسه فقط لكان ذلك شرّ طريق لحصول الانسان على لذائذه الشخصية، لاحتياج كل إنسان الى الآخرين، فلو قَصَرَ كل إنسان فى جمعية نظره على نفسه لتضرّر الجميع، وكذلك الايثار، فلو قصد كل انسان بكل عمل نفع الآخرين وأهمل نفسه لم يكن ذلك فى مصلحة الناس، لانه باهمال نفسه يضعف ويقعد عن عمل الخير للناس، وليس يستطيع غيره أن يقوم بمصالحه هو، لأنه أدرى بها — والنتيجة التى وصل إليها "سبنسر" أنه يجب أن توفق بين الأثرة والايثار، وكلما رقيت أمة مالت لديها الأثرة والايثار الى الاتحاد وتكوين عنصر واحد — فالانسان فى الجمعية الراقية لا تتعارض فى نفسه الأثرة والايثار، بل يرى خيره فى حبه للناس ويرى نفسه عضوا من جسم، فائدة العضو تفيد الجسم وفائدة الجسم تفيد العضو.

— إذن — لا يصح أن نتبع المذهب القائل: بأن المقياس سعادة الشخص — كذلك لا نرى من الحق اتباع مذهب السعادة العامة وإن كان أرقى مما قبله وأشرف، لأن هذا المذهب يجعل الناس لا يحكمون على عمل إلا بعد حساب لذائذه وآلامه، فهو يجعل الحكم الأخلاقى عملية حسابية، والفضيلة ليست فضيلة فى ذاتها، وإنما هى فضيلة لأنها تنتج لذة أكبر، وهذا يفقدها

ما فيها من جمال وتقديس ، واتباع هذا المذهب يجعل الناس جامدين ليس لديهم الشعور القوىّ نحو الفضيلة ، إنما ينظرون الى النتائج الجافة للأعمال ، فضلا عن أنه يترك تقدير ما ينتج عن العمل من اللذائذ والآلام الى الشخص نفسه ، والشخص عرضة لأن يخطئ فى الحساب ، خصوصا وهذا المذهب يتطلب بُعْد النظر وحساب النتائج القريبة والبعيدة معا ، وكثيرا ما يخدع الانسان نفسه فى حساب اللذائذ والآلام اذا رأى فى العمل مصلحته الشخصية ، فيوهم نفسه أن فى العمل منفعة عامة ، وبذلك يتعرّض لخطأ شنيع .

ونحن أميل الى نوع من أنواع اللقانة ، وهو أن الانسان خُلِقَ وفى أعماق نفسه قوة تريه بعض الأعمال خيرا وأخرى شرّا ، لا بالنظر الى ما ينتج عنها من لذائذ وآلام ولكن لأنها نفسها كذلك ، فهو يحس بطبعه بفضيلة ورذيلة ، ويشعر أنه مأمور من نفسه بأن يعمل الفضيلة ويتجنب الرذيلة ، وهو مكلف أن يطيع هذا الأمر مهما كانت نتائجه ، وأن يضحى لذلك بكل اللذائذ التى يتوقعها ، فهو يرى الصدق فضيلة ، وشعوره أو عقله يريه ذلك كما تريه عينه الأسود أسود والأبيض أبيض ، وكما أنا لا نحكم على الأسود بأنه أسود نظرا لنتائجه فكذلك لا نحكم على الصدق بأنه

خير لنتائجه، ولكن لأن نفسى ترينى أنه فضيلة وأنى ملزم بالعمل على وفقه، وإذا كذبت شُكِّلَت لى محكمة فى باطن نفسى تحكم علىّ بالإساءة، وتوقع علىّ عقوبة التأنيب — تلك طبيعتنا التى خلقنا عليها .

والقانون الأخلاقىّ الذى يرينا الخير والشر ويأمرنا وينهانا جزء من طبيعتنا ، وهو — وإن اختلف عند الناس حسب بيئتهم وتربيتهم فأساسه موجود فيهم، فى المتوحش والمتمدين، وفى الراقى وغير الراقى — ففى باطن الانسان شعور بالواجب، وأمر بعمله، وعقوبة على مخالفته، ومكافأة على طاعته،وكل إنسان يشعر بذلك من غير أن ينتظر حساب ما فى العمل من لذائذ وآلام ، وأمعنُ الناس فى الاجرام وأشدّهم قسوة يضطرب اذا أجرم، لا خوفا من العقاب فقط ولكن لأنه خالف أيضا قانون الأخلاق، وكل انسان مسئول أمام ضميره عن إطاعة هذا القانون الأخلاقى ،ومسئول كذلك أمام الله، فقد ربط الله الثواب والعقاب بهذا القانون ،وجعل الجنة جزاء العدل والصدق والشجاعة ونحوها من الفضائل ، كما جعل النار عقابا لأضدادها من ظلم وكذب وجبن، وأن هذا القانون الأخلاقى الذى فى نفوس الناس هو الرابطة بينهم جميعا ، على أساسه يُمدَحون ويذمون، ويكافئون ويعاقبون .

فنحن ندرك الخير والشر بطبعنا ، ونحس الواجب ، ويكلفنا ضميرنا أن نعمله من غير نظر إلى اللذائذ والآلام ، بل يأمرنا أحيانا أن نضحى باللذائذ والسعادة للخير والواجب .

هذا المذهب هو الذى يليق بشرف الإنسان ومنزلته فى العالم ، فليس هو بهيمة يبحث عن لذته أو لذة غيره ، إنما هو مخلوق راق يبحث عن الفضيلة حيث كانت ، ويأمره ضميره بالعمل بها ، وليس يعوقه عن الوصول إلى الدرجة الرفيعة الخلقية إلا تغاليه فى حب ذاته ، وإغضاؤه عن صوت الضمير إرضاء لشهواته ، والمثل الأعلى إنسان يحب الخير للخير ، ويتطلب الفضيلة لأنها فضيلة ، ويؤدى الواجب لأنه واجب ، ويسمع صوت ضميره فى أداء ذلك دائما ، يجعل ذلك مبدأه فى حياته ، وقانونه الذى يسير عليه أبدا .